وقال إبراهيم التّيمي: «ينبغي لمن لم يَحزن أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، وينبغي لمن لم يُشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾».

يا عبد الله، إذا أردتَ الراحة فاعتزل الخَلق إلا فيما لا بدّ منه، فلا تقِف معهم عند كل محطة، ولا تجعل من كل موقف معهم معركة، ولا تدقّق في أحوال من حولك، وتغافَل، ولا تفتّش في النوايا وتفتح ما أُقفل عنك من القضايا، وخذ ممّن حولك ما ظهَر من خير، ولا تبحث عن عيب أو خطأ أو زلل، واعلم أنّ من مُذهبات الحُزن الذكر والدعاء والتسبيح وإكثار السجود لله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾... وفي المقابل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾.

أخي في الله، تضرّع إلى الله بسؤاله الثبات في هذه السنوات الخدّاعات، السنوات التي يقود الهوى فيها الخلائق إلا من رحم الله تعالى، كما روي عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «أنتم في زمان يقود الحقّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان»، فلا تجزع من مخالَفة الناس لك، وتسفيهك واحتقارك، ورميهم لك بأوصاف الذمّ والشذوذ والبهتان؛ فإنّ قائدهم وإمامهم وناطقهم الهوى، فانظر إلى مكانك عند الله تعالى، وانظر إلى مواقع الحقّ، وصحّح المسار، وانظر إلى سلامة الطريق، ولا يلتفت قلبك

إلى بُنيّات الطريق، واحذر أن تُخالِط بشاشة قلبك هذه الأهواء، فيتكاثف الضباب على عينيك، وتتثاقل الأجفان، فما تعود تُبصر الحقّ، ولا تشعر بوكزة الضمير... كان عبد الله بن مسعود يقول: «ذهب صفو الدنيا، وبقي كدَرها، فالموت تحفة لكل مسلم»، وقال ابن بطة: «فما ظنّكم بنا وبزمان أصبحنا فيه، وما نعانيه ونقاسيه، ولم يبقَ من الدين إلا العكَر، ومن العيش إلا الكدَر، ونحن في دُرْدِيّ الدنيا وتَمادِها؟». فلا يثبت في هذا الزمان إلا من ثبّته وأعانه الله جلّ وعلا، ودعا بدعاء الغريق.

قد تسقط في ثنايا الطريق، قد تنهار العزائم لرغبات النفس ودواعي الشيطان، قد تُهزم في بعض المواقع والأحيان بقوة الداعي وضعف الزاد، ولكن ينبغي لك ألا تركن ولا تستسلم طويلًا حتى ترجع منكسرًا بين يدي الله باكيًا ذليلًا، فإنّ المعركة طويلٌ أمدها بطول أيام الإنسان ولياليه في هذه الحياة، فتحتاج إلى زاد من الطاعات والأعمال الصالحات خاصة في مثل هذه الأزمان.

يا عبد الله، أكثِر من طَرق الباب والإلحاح على الله؛ فمن أطال الوقوف عند الباب أوشك أن يُفتح له، وإذا فُتح له الباب فلا تَسأل عن النعيم المُقيم والعطاء الجزيل، فإنّ في الدنيا جنة من دخلها أوشكَ أن يدخل جنة المأوى.

اللهم ارحم ضعفنا واجبر كسرنا وتوَلَّ أمرنا، اللهم أصلح شؤوننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم ثبّت قلوبنا وأحسِن خاتمتنا، اللهم أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مطوية

علامَ الحُزن؟

ذو الحجة ١٤٤٥ هـ

السراج

www.seiraj.com

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد: إنّ الأحزان تَعمل في القلوب حتى تُرهقها، وتزرع اليأس في أحشائها وجوانها، فتضخّ في العروق ألمًا ينتشر في جوارحها، وهكذا تعمل الأحزان التي لا منفذ لها للخروج، فهي تفيض وتهيج وتركن ثم تعود من جديد، حتى تُقطّع نِياط القلوب ولو كانت من جلود أو حديد، قال زيد بن موسى: «سألتُ راهبًا، فقلتُ: إلى ما ينتهي الحُزن؟ فقال: إلى الكمَد. قلتُ: إلى ما ينتهي الكمَد؟ قال: إلى تلف الأنفُس».

قد يكون الحزن على الفقد الوجيع، كفقد الولد أو الحبيب بموت أو فراق، وأشدّ الفقد وأقساه ما يكون وراء القضبان في مقبرة الأحياء، فهناك مُجتمع الأحزان، قال عبد الله بن صالح العجلي: «كان يُقال: الأحزان في الدنيا ثلاثة: خليلٌ فارَق خليله، ووالدٌ ثكل ولَده، ورجلٌ افتَقَر بعد غنى». وقد يكون الحزن على فقد الدنيا وفواتها، وهذا أكثر أحزان الناس على مَرّ الزمان؛ فإنّ الابتسامة ترتسم في الشفاه بالعَطيّة في الدنيا، وتعبسُ الوجوه والملامح بالمنع فيها، فالقلوب معلّقة بالدنيا منعًا وهات، وعليها مدار الفرح والسرور والحزن والحبور. وقد يكون الحزن من الهمّ والغمّ والدَّيْن وقهر الرجال، وقد يكون من الغربة والاستضعاف والهوان بين الناس، وقد يكون من الفقر وقلّة ذات اليد والحيلة، وقد يكون الحزن على الدين الحنيفي وملة إبراهيم ذات الدعائم، وهذا من الحزن الممدوح، فترى صاحبها متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السَّكْت، لا يتكلم في غير حاجة.

اعلم يا عبد الله، أنّ الخيرة فيما اختاره الله، فإنّه تعالى أعلم بك من نفسك وأرحم بك من أمّك، فالقضاء مفروغ منه، والقدَر واقع، فإن أعطاك المولى كان ذلك خيرًا لك، ولو مَنع وضيّق كان ذلك أخيَر لك، فليست الدنيا دار جزاء ولا عطاء، فلا العَطيّة فيها دلالة على الرضا، ولا المنع دلالة على السّخط، فكم من فقير أغناه الله بعد إلحاح فكان ذلك فتنة وهلاكًا له، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وذُكرت الدنيا عند الحَسن، فقال: «أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ»، وكان عمر بن عبد العزيز يدعو قائلًا: «اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرتك؛ حتى لا أُحِبّ تعجيل ما أَخّرْتَ، ولا تأخير ما عَجّلْتَ»، وكان يقول: «ما برح بي هذا الدعاء حتى لقد أصبحتُ وما لي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء».

يا عبد الله، لا تتخيّل الأسوء دائمًا الفقر والبلاء، فهو سوء ظنّ بالله تعالى، فأحسِن الظنّ بمولاك تنل خيرًا، وكما روي في الحديث القدسي، قال تعالى: «أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء، إن ظنّ بي خيرًا فلهُ، وإن ظنّ بي شرًّا فلهُ»، وإياك أن تخاف من شيء قبل حدوثه؛ فتعيش أسير هذه الأوهام، فاصرف فكرك وخوفك عن الغيبيّات، فالغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وقال بشر بن الحارث: «لا تَغتمّ إلا بما يضرّكَ غدًا، ولا تفرح إلا بما ينفعك غدًا».

واعلم أنّ البلاء إذا وقع نزل معه اللطف والرحمة من الله جلّ وعلا، فإذا تصوّرتَ البلاء قبل وقوعه فقد استقبلْته دون لطف، فكان في ذلك فتنة لك، وإن كان الله معك فإنّ معك الفئة التي لا تُغلب والحافظ الذي لا ينام والهادي الذي لا يَضِلّ. فمن يكن الله معه فمن من الخَلق يخاف؟! ومن وجد الله فمن من الخَلق فقَد؟! ومن يكن الله عليه فمن من الخَلق يرجو؟! ومن فقَد الله فمن من الخَلق وجَد؟! قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

واعلم يا عبد الله، أنّ الدنيا التي تَقتل نفسك لأجْلها ما هي إلا جسر تَعبر منه إلى دار الخلود، فليس في الدنيا راحة، وليس فيها فرح إلا وهو مَشوب بالتنغيص، قيل لعلي رضي الله عنه وأرضاه: «صِف لنا الدنيا. قال: ماذا أصِف من دار أوّلها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من صحّ فيها أمِن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حَزن؟!»، وقال الحَسن بن عُمَيْرة: «اشترى عمر بن عبد العزيز جارية أعجمية، فقالت: أرى الناس فرحين، ولا أرى هذا فَرِحًا؟ فقال: ما تقول لُكع؟ فقيل: إنها تقول كذا وكذا. فقال: حدّثوها أنّ الفرح أمامها».

واعلم الحزن الممدوح هو الحزن على الذنب الذي مضى، وهو من أجلّ العبادات، كما قال الحَسن: «ما عُبِدَ الله بِمثل طُول الحُزن»، وقال منصور بن زاذان: «الهمّ والحُزن يَزيدان في الحسنات، والأَشَرُ والبَطَرُ يَزيدان في السيئات».